شهريات

بقلم رئيس التحرير

حوار حول الرواية والنقد والشعر . . . والحرية

أنقل في « شهريات » هذا العدد الحوار الذي أجراه معي الاستاذ أحمد فرحات ونشرته مجلة « الكفاح العربي » في عددها الحادي عشر الذي صدر في مطلع أيلول الحالي :

● حدثنا عن المكونات الاساسية التي شكلت الانسان القاص والروائي فيك ؟

ـ أعتقد أن العامل الرئيسي الذي فجّر فينفسي الكتابة القصصية والروائية لم يكن عاملا ثقافيا بقدر ما كان نفسيا ، وهو احساس معذب بالحرمان العاطفي عاناه فتى لم يكن يتجاوز الخامسة عشرة ، وقد أحب هذا الفتى فتاة في مثل سنه كانت أقرب الى الانثى اللعوب ، وقد خلفت لديه من احساس الخيبة والحرمان ما جعله ينطوي على نفسه فترة من الزمن لم يكن له من عزاء فيها الا صفحات الكتب الروائية ، وأنا لا أزال أحتفظ بمخطوطة أول رواية ساذجة كتبتها بعنوان « أشعة الفؤاد » ، أحكي فيها هذه المأساة العاطفية ، وفي تلك الاثناء كنت أتابع دراسة دينية أرادني والدي عليها ولم أخترها بوعي مني وتقدير . وقد زادتني طبيعة هذه الدراسة التي تقتضي المحافظة والتحفظ شعورا بالحرمان ، فكان أن زدت انطواء على نفسي ، ورحت أتطلع الى البديل في آفاق القصة العالمية عن طريق اللغة الفرنسية التي حببني بها أستاذ كان يتذوق الرواية الفرنسية . واذا كان لي أن أذكر الرواية الاولى التي تركت لديّ أكبر تأثير ووجهتني في طريق الكتابة فهي بلا شك رواية : « ألان فورنييه » المعروفة : (المولن الكبير) ، التي عكفت على ترجمتها وأنا في تلك السن ، ولا أزال أعتبرها من روائع الروايات العالمية ، بالرغم من انه قد انقضى على صدورها ما يزيد عن نصف قرن . وأذكر هنا اني بعثت بأول قصة قصيرة كتبتها الى المرحوم « عمر فاخوري » في الاربعينات بعنوان : « الناي » ، وكان يشرف على مجلة أعتقد ان اسمها كان: « المراحل » ، فكتب اليّ يشجعني على الاستمرار في كتابة القصص ، من غير أن ينشر لي هذه القصة . والواقع ان بضعة عوامل انقضت قبل أن تنشر لي « المكشوف » و « الاماني » ثم «الاديب» بعض أقاصيصي الاولى . والمهم ان ذلك لم يثبط همتي ، ومن أجل ذلك دأبت في « الآداب » على مكاتبة القصاصين الذين كنت آنس لديهم براعم الموهبة مشجعا اياهم على المضي . وأقول هنا بكل اعتزاز انني استطعت أن أسهم بمساعدة بضعة أجيال من القصاصين العرب على شق طريقهم بما يملكونه أولا من الموهبة الذاتية . واذا عدت الآن الى تلك الاقاصيص الاولى فاني لن أكون راضيا عنها ، ولكني أعتبرها مع ذلك مرحلة تأسيسية للقصة التي مارستها وكانت تمهيدا لروايتي الاولى : « الحي اللاتيني » التي صدرت منذ ربع قرن .

● الذي ألحظه في روايتك : الحي اللاتيني » انها تعبر عن هذا الشرخ التناقضي الذي يصيب الشخصية الشرقية ومنها العربية صاحبة القيم والميتولوجيا المعروفة ، عندما تمتزج حياتها بالحضارة الاوروبية ذات التأثيرات القوية السمات والمزايا . ان هذه النظرة المزدوجة والمعبرة عن تصارع نظامين من القيم في لحظات تاريخية معينة .. صورتها بنجاح مؤكد مداه عبر الرواية .. الا انك لم تقدم في النهاية جوابا على هذا التناقض المستعصي .. واحتفظت بين الحضارتين دون الوصول الى حل . بماذا تعلن ؟

ـ بالرغم من ان عددا من النقاد العرب الذين تناولوا هذه الرواية يرون ان المشكلة التي طرحتها وضعت لها بعض الحلول ، فأنا لا أعتقد ان من الضروري اللازم أن يضع الروائي حلا صريحا لمشكلة يطرحها . فالروائي ليس في نهاية المطاف مصلحا اجتماعيا ، ويكفيه أن يطرح القضية ويبرز التناقضات الاجتماعية التي تتكشف عنها الصراعات، وللقارىء بعد ذلك وللناقد أيضا أن يستخرج الخطوط التي تشير ولو اشارات بعيدة الى ظلال الحلول .

ان البطل « الايجابي » يكمن في كثير من الاحيان في البطل السلبي بالذات .

واذا كان بطل « الحي اللاتيني » قد أحسّ ذات لحظة ان القيم الشرقية التي يعتنقها والتي يجسدها في هذه الرواية شبح الأم البعيدة لا تخلو من ازدواجية ونفاق ، باعتبار انه كان يطلب ممارسة الحرية من غير أن يرى ان ذلك يلزم عنه بالضرورة تحمل مسؤولية هذه الممارسة فان محاولته التخلي عن هذه الازدواجية للتكفير عن جريمته هو في ذاته طرح لحل ما يتمثل في آخر الرواية بعبارة : « بل الآن نبدأ يا أمي » التي تعني اننا نبدأ بتحمل مسؤولية أفعالنا . وأعود فأكرر ان هذه قد تكون رؤية لحل تطرحه الرواية حول الصراع وان

كنت لا ألزم نفسي ، كما ذكرت ، بضرورة وضع حلول صريحة للمشكلات التي أطرحها .

● ما هو مفهومك لبناء الرواية . الشخصيات هل ترسم خطوطها سلفا أم تتكامل في السياق ؟

ـ الواقع انه لا بد للروائي حين يتعامل مع أبطال رواياته من أن يتصور لهم شخصيات ذات صفات غالبة. أقول غالبة وأقصد انها غير نهائية ، ولو لم يفعل ذلك لحارت بين يديه مسيرة التطور لدى هذه الشخصيات، ولكن الذي يحدث في كثير من الاحيان ان الابطال يتمردون على خالقهم ، ويبدأون ينتفضون بحياتهم الخاصة في السياق الروائي ، وكثيرا ما يجبرون المؤلف على اتباع سيرهم هم فيتخلى عن الطريق الذي يكون قد رسمها لهم أولا . أذكر على سبيل المثال انني لم أكن قد صممت لبطلة : « أصابعنا التي تحترق » بعض المواقف الجذرية التي رأيت « الهام » تتخذها فجأة على غير ارادة منها ، فاقتنعت بأن ذلك كان أفضل من حيث الايحاء الحياتي فضلا عن التطور الروائي . وهذا أمر طبيعي ، فالشخصية الانسانية ليست واحدية ، بل هي بؤرة تصارع داخلي وتذبذب عاطفي وتناقض مستمر ، وأهمية العمل الروائي ، كل عمل روائي ، تكمن في رسم هذه الصراعات .

● كيف تنظر الى العمل الروائي العربي اليوم ؟ وما هو مدى استقلالية الرواية العربية عن الاتجاهات الغربية في هذا المجال ؟

ـ الاجابة على هذا السؤال تقتضي في الحقيقة تتبعا دقيقا لتطور الرواية العربية . وهو أمر قد لا يكون متيسرا في هذه المقابلة . غير اني أذكر هنا ان تأثر الروائيين العرب بالكتاب الاجانب يخف تدريجيا لتتخذ الرواية العربية شخصية يزداد حظها من الاستقلالية ، وقد كان من الطبيعي ، والرواية هي فن مستحدث في أدبنا العربي ، أن تتأثر في بدايته عهدها بالكتابات الغربية ، وأن تبرز في كثير من الروايات الاولى بصمات : « دوستويفسكي » ، و « همنغواي » ، و « سارتر » ، و « كامو » ، وحتى « فوكنر » في تكنيكها الروائي . وكان ذلك لا يخلو من رغبة في التقليد والاقتباس ، غير ان الوعي الاجتماعي الذي ازداد عمقا مع الزمن لدى أجيالنا العربية كان يفرض على الصعيد الروائي ميزة التفرد والتميز والاستقلال ، بحيث انه قد أصبح لكل روائي عربي موهوب رؤيته الروائية الخاصة مضمونا وشكلا . خذ مثلا نجيب محفوظ وجبرا ابراهيم جبرا ، فأنا أعتقد انهما لا يتأثران بالروائيين الاجانب على الاقل في آثارهما الاخيرة ، ومن هنا نستطيع الحكم بأن روايتنا العربية الحديثة لم تكن محتاجة الى المدى الزمني الطويل الذي استغرقه تطور الرواية الغربية ، بل هي قد أفادت من هذا التطور لـ « تحرق » المراحل حتى تنضم الى الركب الروائي العام ، ولست من الذين يحسون بعقدة النقص كلما طرحت فكرة المقارنة بين الرواية العربية والرواية الاجنبية . فان لدينا روائيين في انتاجنا الحديث يساوون بعض الروائيين الاجانب من حيث القيمة الفنية والجودة في التصوير الاجتماعي.

● اسمح لنا يا دكتور أن نناقشك هنا ... اننا لا نرى ميزة التفرد والتميز والاستقلال عند روائيينا آخذة بالتبلور .. أو أن الرواية العربية هي في بداية الخروج من مناخ التأثيرات الغربية، على العكس تماما فالرواية العربية ما تكاد تخرج من دائرة تأثيرات غربية معينة حتى تدخل دوائر أخرى متعاقبة ضمن سياق التطور الفني المطرد الذي تشهده الرواية الغربية . فبعد أن تأثرت الرواية العربية التقليدية مثلا بالرواية التقليدية الغربية ـ والرواية التقليدية كما نعلم هي التي تقدم للقارىء واقعا متماسكا يهتم أول ما يهتم بالدراسة النفسية ومعالجة للزمان على طريقة المؤرخ أو كاتب السيرة الذاتية في شكل معين من السرد والوصف تتشابه بناءاته وتتابع تسلسله الزمني والموضوعي للاحداث بحيث يجد القارىء ان مهمته سهلة يسيرة لا تحتاج الى مجهود عند القراءة ، فكل شيء مفسر مشروح ومحول الى سرد وصفي تحليلي ـ أقول بعد أن تأثرت الرواية العربية بهذا الشكل الروائي راحت تتأثر بشكل آخر طوره الكتاب الغربيون وصار سائدا عندهم ، وخصوصا في أعمال « بروست » ، « موزيل » ، « كافكا » ، « فوكنر » ، « داريل » ، و « جويس » .. فالرواية عند هؤلاء قدمت واقعا لا يفهمه القارىء فهما تاما مباشرا .. انهم لم يروو قصة ، بل نقلوا مزيجا من الاحاسيس والانطباعات والتجارب في قالب شاعري مرن وغامض يختلط الحدث فيه بالاسطورة . وعلى القارىء أن يعثر على الرموز النفسية والبنائية والفينومينولوجية والروحية التي تشتمل عليها الرواية . ثم جاءت السوريالية لتؤثر تأثيرا معمما على الاتجاه الروائي في الغرب . ومع هذا تدخل الآن الرواية والقصة العربية طقس اللعبة السوريالية خصوصا في أعمال وتجارب الروائيين الشبان الجدد . وعليه فأين هو حظ الرواية العربية من الاستقلالية والتفرد ؟

ـ أرى انك في هذه الملاحظة تتحدث عن مظاهر من تطور الرواية الاجنبية . ولكن هذا الحديث أقرب الى أن يكون نظريا ، أي انه يفتقر الى الناحية التطبيقية، على الانتاج الروائي العربي ، وهو يتخذ شكلا من التعميم يكاد المرء يفهم منه ان تقليد الفن الروائي الاجنبي قانون صارم لا مجال معه لخلق فن روائي عربي . انك تؤكد اننا لا نزال في طور الاقتباس والتأثر ، وأنا أعتقد ان هذا يفتقر الى الادلة ، وأرى اننا اذا كنا في مطلع النهضة قد اقتبسنا عن الرواية الغربية لرغبتنا في التجديد ، فقد استطعنا اليوم بعدة أجيال من الروائيين العرب أن نخلق لنا رواية عربية خاصة بنا ذات ميزات متفردة ولا تمت الى الرواية الاجنبية بصلة ، وهذا لا ينفي طبعا أن تكون هناك بعض الملامح التكنيكية التي يستعملها الكاتب العربي ليسهل مسألة الايصال بشكل اكثر اغراء من السرد التقليدي . واذا كان لا بد هنا من الاستشهاد فينبغي أن نحاذر الاستشهاد بالمحاولات التجريبية ، التي يتبناها بعض الشباب أو بعض المبتدئين في الكتابة الروائية ، لان هذه المحاولات لم تثبت جدارتها بعد في ميزان التقييم . بل ينبغي أن نحصر استشهادنا

بالروائيين العرب الذين أصبحت لهم تجربة عريضة في هذا الميدان من أمثال نجيب محفوظ ويوسف ادريس وجبرا ابراهيم جبرا وحنا مينه وعبد السلام العجيلي وتوفيق عواد وأمثالهم . الم يستطع هؤلاء جميعا أن يتخلصوا من التأثير الاجنبي ويصنعوا فنا روائيا عربيا ذا شخصية متميزة ؟ الجواب ايجابي بالقطع، وهو يثبت مرة أخرى ان من الظلم أن يتهم أدبنا العربي الحديث بالتخلف أو التقصير حين تطرح مسألة المقارنة معالانتاج الاجنبي . اننا بطبيعة الحال نشجع كلمبادراتتجديدية في أي فن أدبي ، ولكننا نطمحدائما الى أن يتجاوز المنتج كل التأثيرات ، ويخلق لنفسه عالما خاصا من الرؤى والابعاد والشكل والموضوع . ونحن نفتقر الى مثل هؤلاء ، فيما ندعو المواهب الجديدة الى المثابرة من غير أن تزهو وتسكر وتصاب بالغرور ، فليس أقتل للموهبة من الاحساس بالغرور .

واذا وقفنا قليلا عند لفظة السوريالية مثلا استطعنا أن ندرك لماذا لا نجد في آثارنا الروائية الا آثارا ضئيلة لهذه المدرسة ، في حين ان الرواية الاجنبية قد تجاوزتها . واذا كان ثمة بعض الروائيين الجدد من الكتاب الغربيين يعودون الى بعض نزعاتها فانما هو نوع من ردة الفعل على ما أنتجه المذهب الواقعي، وما تمخض عنه من اغراق في الاوصاف المادية والحسية . أما في أدبنا العربي الحديث فان المذهب الواقعي لا يزال هو السائد ، لان طبيعة المجتمع ومعالجة آفاته وتحليل مختلف التناقضات الاجتماعية ، كل ذلك هو الذي يحكم الروائي العربي في اختيار زاوية المعالجة الموضوعية . بمعنى اننا لم نستطع بعد أن نستنفذ تصوير الواقعية في مجتمعنا حتى نتجاوزها الى ما فوق الواقعية أي السوريالية . ومن أجل ذلك لا نجد لدى القارىء العربي الآن تجاوبا كبيرا مع انتاج سوريالي يخطر لبعض الكتاب أن ينتجوه لانه بالاجمال لا يعبر عن هموم حقيقية تتصادى في وجدان الكاتب المعطي مع وجدان القارىء المتلقي ، وانما قد تكون في نهاية المطاف نوعا من الترف الشكلي الذي يهدف الى الاغراب والادهاش أكثر مما يعبر عن مشاغل حقيقية .

واذا أردنا تلخيصا للمشكلة المطروحة في هذا السياق فاننا نقلصه الى المعادلة التالية : لمن تكتب أيها الروائي ؟ ولماذا تكتب ؟ هل تكتب لفئة محددة صغيرة يحق لها طبعا أن تبحث عن أشكال جديدة في الكتابة ، أم لفئة عريضة يهمها أن ترى في الكتابة انعكاسا لمشاغلها وهمومها الكبرى ؟ اننا لا نريد بطرح المعادلة بهذا الشكل أن نثبت ان هناك طلاقا نهائيا بين الهم الموضوعي والهم الشكلي . ولكن هذه باعتقادنا مرحلة لا بد أن تكون تالية ، ومن هنا يكون الاحساس لدى البعض بأن في المسألة عملية قفز احساسا مبررا . اننا لسنا على الاطلاق ضد التجريبية . ولكننا نعي بعض المحاذير التي تحتملها التجريبية حين تخرج عن معالجة القضايا الى نوع من التمارين المترفة على التراكيب اللغوية والصور التي تتجاوز الغموض المطلوب في كل عمل فني الى الفنتازيا التي تسعى الى الابهام من أجل الابهام .

● هناك ملاحظة : وهي ابتعاد القراء عن الرواية ، والهروب عنها الى القصة القصيرة لان شروطها أسرع .. خاصة في عصر يضغط على الانسان ويسلبه حتى مزاياه الفردية ، فتكون الرواية بذلك عملا يتطلب جهدا نوعيا ووقتا ليس بالامكان توافره ، زد الى ذلك ان منجزات الحضارة التكنولوجية من سينما واذاعة وتلفزيون صارت أسهل ادراكا على الناس من الكلمة المطبوعة ، اذ تخاطب حواسهم المختلفة على شكل حصار واحد مشترك يصبح معه من الممكن لهذه المنجزات أن تشكل بديلا يجذب الناس ويصرفهم عن قراءة الرواية والقصة . نطلب التعليق ؟

ـ لا أعتقد ان القارىء يفضل القصة القصيرة على الرواية ، بالرغم من ان وسائل الاعلام والصحافة تشجع هذه وتفضلها على تلك ، واذا كان لي هنا أن أعطي تجربة في ميدان النشر ، فان الاقبال لدى القراءالعرب على الرواية هو أضعاف اقبالهم على مجموعات القصص القصيرة . وهذه واقعة يثبتها الادب الاجنبي أيضا ، وأحسب ان كتابة القصة القصيرة أصعب من كتابة الرواية . ولكن ضيق المجال في الصحافة الادبية هو الذي يحكم النشر . وقد يحسب بعض الناس ان كتابة القصة القصيرة أسهل فيستسهلون ذلك . والواقع اننا في مجلة « الآداب » مثلا قد نقرأ أحيانا خمسين قصة قصيرة لنخرج منها بثلاث قصص أو أربع جديرة حقا بالنشر ، بحيث ان الازمة هي الآن أزمة قصة قصيرة أكثر مما هي أزمة رواية . ولا أعتقد ان السينما أو التلفزيون أو الاذاعة قد استطاعت أن تصرف الناس عن قراءة الرواية بالرغم من ان العصر عصر السرعة وطلب المباشرة وقطف الثمار الدانية . فان المتعة التي توفرها الرواية ولا سيما على صعيد التحليل النفسي لا يمكن أن يوفرها الفيلم مهما بلغ مخرجه من المهارة والابداع . من أجل ذلك أصبح كبار الادباء في العالم بما فيهم الشعراء يؤثرون اللجوء الى الرواية حتى لاثباتنظرياتهم الفلسفية والاجتماعية . وآخر مثال على ذلك كتاب روجيه غارودي الاخير ، وهو رواية بعنوان : « من أكون في رأيكم ؟ » ، وفيها تجسيد روائي لكثير من نظرياته التي وردت خاصة في أحد كتبه الاخيرة الذي عنوانه : « مشروع الامل » . لقد رأى « غارودي » ان بامكانه أن ينفذ عن طريق الرواية الى قطاع أكبر من القراء من الذي اعتاده في كتبه الفكرية النظرية ، فاختار هذا الشكل العالمي والعام من أشكال التعبير الفني .

وعلى هذا فأعتقد ان مستقبل الرواية سيكون اكثر اشراقا من حاضره ، وان الناس لن يكفّوا عن طلبالمزيد من الاعمال الروائية .

● سأحاول أن أذكر أسماء روائيين لبنانيين وعرب . طالبا منكم وقفة معينة عند كل اسم :

ـ توفيق عواد : حين كتبت في رسالة الدكتوراه عن روايته : « الرغيف » ، وقصصه في « الصبي الاعرج » و « قميص الصوف » اعتبرته من أكبر الروائيين والقصاصين اللبنانيين والعرب من حيث الموضوع والشكل معا ، ولم يتغير هذا الرأي حين أصدر روايته : « طواحين بيروت » ، بالرغم من تحفظي على بعض الاتجاهات في الموضوع ، توفيق عواد ثروة أدبية.

ـ يوسف حبشي الاشقر : لم أقرأ له جديدا . وما قرأت من رواياته السابقة يجعلني أعتقد انه طاقة خلاقة وان كان بعض أبطاله الرئيسيين أقرب الى التجريدات منهم الى أشخاص من لحم ودم .

ـ الياس الخوري : « الجبل الصغير » تضعه في الحركة الطليعية لقصتنا العربية بسعة الرؤيا وتبني الهم القومي الاجتماعي وحرارة التصوير وصدقه ، فضلا عن تقنية جديدة لم تتوفر لكثيرين من القصاصين العرب .

ـ زكريا تامر : نسيج وحده في القصة القصيرة المليئة بالرموز الموحية ، وهو من أبرع القصاصين العرب في نقد المجتمع العربي بأسلوب بعيد كل البعد عن المباشرة والتقريرية .

ـ هاني الراهب : أحببت روايته الاولى : « المهزومون » .

ـ حنا مينه : أبرع روائي عربي في تصوير الظلم الانساني وأشواق الانسان الى الحرية والعدالة ، ولعله أقدر روائي على الامساك بأنفاس قارئه حتى السطر الاخير . وبالرغم من انه كاتب شديد الالتزام فهو أبعد الروائيين عن روح اقحام معتقداته في السياق الروائي.

ـ جبرا ابراهيم جبرا : روايته الاخيرة : « البحث عن وليد مسعود » من أغنى الروايات العربية الحديثة من حيث التعبير عن هموم الانسان العربي و «الفلسطيني» خاصة ، وما يعانيه من هموم ذاتية ـ عامة . فضلا عن ان تكنيكه الروائي في هذا الاثر يثير الدهشة حقا .

ـ عبد الرحمن منيف : أعجبتني كثيرا روايته « شرق المتوسط » ، فهي من أجرأ رواياتنا الحديثة . ويؤسفني انني لم أقرأ بعد « الاشجار واغتيال مرزوق » التي يتحدث عنها النقاد بلهجة اعجاب .

ـ صنع الله ابراهيم : أفضل روايته الاولى : « تلك الرائحة » مضمونا وتقنية على « نجمة اغسطس » .

ـ الطيب صالح : « موسم الهجرة الى الشمال » عجيبة في غناها وتنوعها وزخم الحياة فيها وتناقض الانسان وتقلباته .

ـ محمد زفزاف : محمد زفزاف وآخرون من المغرب ، وعود كبيرة في بنيان القصة العربية الحديثة .

● نأتي الآن الى موضوع النقد ... يرى البعض ان هناك أزمة نقاد في الوطن العربي وليس أزمة فنانين مبدعين . هل تميل الى هذا الرأي ؟

ـ اذا حاول الراصد للحركة الادبية في الوطن العربي أن يتتبع تطور النقد في الاعوام الثلاثين الاخيرة يلاحظ دون شك ان النقد يعاني من الانحسار فالجدية والتعمق والاهتمام الحقيقي بالانتاج الادبي . كل ذلك لا يصيب لدى الجيل الحالي من النقاد ما كان يصيبه لدى الجيل السابق من اهتمام ، وقلة هم الآن النقاد العرب الذين يثبتون ان النقد عمل ابداعي لا يقل أهمية عن الشعر والقصة والرواية ، وبالرغم من ان تطور الشعر وتطور القصة قد قطع أشواطا كبيرة في مسيرة أدبنا الحديث فان النقد بالاجمال متخلف عنهما الآن . ومن المؤسف ان يكون دور الصحافة الادبية في هذا المجال أقرب الى السلبية ، ولعل مرجع ذلك ان رؤساء التحرير اجمالا يضيقون ذرعا بالدراسات العميقة المستفيضة بدعوى ان المجال لا يتسع ويخشون الاثقال على القراء !! وقد تحدثت في أكثر من مناسبة عما يمكن أن تجنيه الصحافة على الادب في ميدان النقد ، واستشهدت بأن المجلات الاجنبية ، حتى الاسبوعية منها ، تعهد بباب نقد الكتب الى كبار النقاد ، في حين ان معظم صفحات النقد في مجلاتنا العربية وصحفنا اليومية انما تعطى لمن لا يملكون من عدة النقد شيئا ، والاستثناءات في هذا المجال قليلة جدا . ومعظم الذين يتصدون للنقد ينعدم لديهم حسّ المسؤولية ويستخفون بالاثر المنقود ولا يستطيعون أن يعوا ما عاناه المؤلف في انتاج اثره . ولا بد من أن تعالج هذه الازمة بكثير من الجرأة والصراحة وأن تخاض المعارك من أجلها لوضع حد للعبث الذي يمارسه كثير من الذين أعطوا المنابر بغير ما استحقاق ولا أهلية . وفي النية أن تدعو مجلة « الآداب » لعقد ندوة عن أزمة النقد في فرصة قريبة اذا أتاحت الاوضاع الامنية ذلك في بيروت ، محاولة في الاسهام لتحديد أسباب هذه الازمة ومعالجتها .

● رافقت مجلة « الآداب » التي ترأس تحريرها التجربة الشعرية العربية الحديثة منذ نشأتها . وهي بهذا أول مجلة ساهمت في احتضان هذه الحركة الابداعية الخلاقة وفتحت أمامها آفاق التفجر والامتداد . غير ان لنا مآخذا كبيرا على « الآداب » نترجمه عبر موقفها من قصيدة النثر . هذه القصيدة التي أكدت قوتها وخريطة وجودها الابداعي ، وما تزال « الآداب » ـ سيدة الانفتاح والتجدد ـ غير معترفة بها . نطلب التعليق ؟

ـ أشكر لك هذه المناسبة لاثارة موضوع كثر حوله الاخذ والرد . وأحب أن أفصله هنا بالنقاط التالية :

□ اولا : لقد آن الاوان لوضع حـــد لادعاءات ما فتئت بعض الجهات تطلقها منذ حين لتستأثر بفضـل تبني تيار الشعر العربي الحديث. وقد كنت أنت منصفا حين أشرت الى ان « الآداب » كانت أول مجلة تحتضن هذا التيار . وجميع المجلات التي اهتمت به انما جاءت بعد « الآداب » بعـــدة سنوات ، ورواد الشعر الحر جميعهم انما نشروا أهم انتاجهم في « الآداب » : بدر شاكر السياب ، عبد الوهاب البياتي ، نازك الملائكـة . خليل حاوي ، صلاح عبد الصبور ، أحمد عبد المعطي حجازي ، أمل دنقل ، سلمى الخضراء الجيوسي ، بلند الحيدري ، وحتى أدونيس انمـا نشر قصائده الحـرة الاولى في « الآداب » قبل صدور مجلة « شعر » .

□ ثانيا : نحن لا نعتقد ان الشعر الحر أو القصيدة العربية الحديثة منقطعة الجذور عن شعرنا العربي وانما هي تطوير مبدع لهذا الشعر وانطلاقا منـــه باعتبار أن التفعيلة هي القاسم المشترك ، وقد استطاعت القصيدة الحديثة بسرعة مذهلة أن تتخلص من كثير من آفـات الشعر العمودي وأن تجدد القصيدة العربيـــة تجديدا لعله أهم ما يسجله المؤرخ في تطور أدبنا العربي الحديث. ونحن لم نحتضن هذه التجربة ، حتى ولو احتملت بعض السيئات ، لمجرد انها منطلقة من أرض صلبة مشدودة الى التراث العربي ، بل لانها نجحت نجاحا كبيرا فـي تحميل الشكل الجديد الغايات والهمـــوم التي يعانيها الشاعر . وأنا أذكر هنا ان الاقبال على كتابة هذا الشعر وعلى قراءته بين الخمسينات والستينات ، كـان اقبالا كبيرا جدا ، مما يدل على ان التعاطي بين المنتج والمتلقي بلغ في تلك الفترة غايته ، وهذا مقياس النجاح في كل فعل أدبي .

□ ثالثا : وفي تلك الفترة احتضنت « الآداب » أيضا أهم التجارب القصصية الحديثة سواء على صعيد القصة القصيرة التي كانت تنشرها عـــلى صفحاتها ، وتقيم لها المسابقات ، أم على صعيد الرواية التي نشرت دار الآداب بعض نماذجهـا التطليعيـــة . وكذلك القول بالنسبة لميدان النقد . فقد أشار كثير من الدارسين في مناسبات مختلفة الى أهمية الاقلام التي استقطبتهـــا « الآداب » في ميدان النقد ودرس الانتـــاج الجديد وأهمية الباب الذي استحدثته تحت عنـوان : « قرأت العدد الماضي من الآداب » . هذا الباب الذي خلق حركة نقدية ناشطة وكان يثير اهتمام جميع القراء ، فضلا عما كان يقدم من عون حقيقي للاقلام المـــوهوبة والبراعم الواعدة . وأذكر هنا أيضا باب الادب الاجنبي الـــذي استحدثته المجلة فكان نافذة مشرعة على كل التيـارات الفكرية الاجنبية وترجمة كثير من الدراسات والقصص والمسرحيات ، كل ذلك ليس بالجديد ، ولا نورده هنـا للتباهي ، كما لا نورده ردا على تخرصات بعض الكتّاب التافهين الذين ينصبون انفسهم مقيمين لتيارات الادب العربي الحديث . وانما نشير اليه كمدخل للاجابة على السؤال المطروح بالنسبة لقصيدة النثر .

□ رابعا : انني أنفي بكـــل قوة ما يقال مـــن ان « الآداب » تتخذ موقفا عدائيا من هذا اللون من الادب ، فقد سبق للمجلة أن نشرت فـي سنواتها الاولى بعض نماذج من قصيدة النثر ، حتى انها نشرت في أحـــد أعدادها لعام « ١٩٥٧ » اذا لـم تخني الذاكرة قصيـدة نثرية كافنتاحية ، وهي لجبرا ابراهيم جبرا بعنـوان : « هكذا تمر بنا الاعوام » ، ولكنها كانت نادرة قصـــائد النثر التي نشرناها . فاذا غاب هذا اللون عن صفحـات المجلة بعد ذلك فلسبب واحد ، وهو ان النماذج التـي وردتنا للنشر لم تكن في المستوى المقنع . ومـع الايـام تكوّن لدينا احساس ، وليس هو اقتناعا ، بأن قصيدة النثر ما تزال تفتقر الى فرسانها ان لم نقل روادها الذين يستطيعون بموهبتهم وابداعهم أن يحملوا القناعة بأهمية هذا اللون الجديد وضرورته في شعرنا العربي الحديث. وهذا يعني في نهاية المطاف ان « الآداب » لن تقف ولن تستطيع أن تقف مانعا أمام تيار أدبي يفرض نفســـه اذا استطاع ، وانها بالتالي لن تتردد في نشر نماذج من قصيدة النثر تحمل في سطورها قيمتها وقوة حجتهـا واقناعها .

● ولكن ماذا عن تجـــارب أنسي الحاج ومحمد الماغـوط وأدونيس ويوسف الخال ، أليست تؤهلهم لان يكونوا روادا وفرسانـا لهذه القصيدة النثرية ؟

ـ انني أحترم كتاباتهم النقدية .

● القصيدة العربية الحديثة ، هل وصلت الى طريق مسدود ؟

ـ لا أؤمن بأن في الانتاج الادبي طريقا مسدودا . الطرق المسدودة هي التي تأتي كنتيجة للمعادلات العلمية. أما الادب بطبيعته ذاتها وباحتماله الابـداع المتنـاقض والتيارات المتعاكسة هو دائما مفتوح الآفاق . القصيدة العمودية بالذات لا يمكن أن تصل الى طريق مسدود حين يأتي من يخلصها من عقابيل آفاتها . خذ الجواهري مثلا، فاذا كانت قصيدة الشعر الحر تعاني الآن مـــن بعض الامراض شأنها في ذلك شأن كل تيار جديد .. فانهـا ستجد دائما من يجلب لها العلاج والبرء والعافية . هناك اليوم نماذج رديئة من القصيدة الحديثة ، ولكن لا يزال هناك : « سعدي يوسف » و « أمل دنقل » و «حجازي» وشعراء الشباب في لبنان ولا سيما شعراء الجنوب . ان انتاج هؤلاء جميعا لا يوحي فـــي نظرنا بأن الطريق مســـدود .

● كقارىء للشعر والروايـة على السواء .. ما هي المفـارقة التي تجدها بين قراءتك لقصة وقراءتك لقصيدة ؟

ـ أجمل قصة في رأيـــي ، هي التي يسري في ثناياها روح الشعر ، فهي بهـــذا وحده تكفّ عـــن

التسجيلية لترتفع الى التعبير عن أشواق الانسان ومطامحه . اقرأ بعض قصص « أديب نحوي » ، وزكريا تامر ، ومحمد خضير ، ومهدي عيسى الصقر تجد الشعر في أجمل صوره الى جانب القصة الموحية . ان طبيعتي الشعر والقصة مقدودتان من معدن واحد . وأحسب ان القصاص والروائي الحقيقي هو الذي يطمح الى أن يصبح في آخر المطاف شاعرا حقيقيا ، وان كانت المعادلة العكسية غير مطلوبة بالضبط .

● كيف تنظر الى قضية تجديد اللغة وصلتها بالحضارة ، خصوصا وانها أداة الناس الاولى ، تتطور بتطور فاعليتهم الاجتماعية والحضارية العامة ؟

ـ اذا كانت غاية كل فن أدبي « أو غير أدبي » أن يتجدد ، فانه مدعو للسقوط اذا لم يتجدد كليا ، أي بكل أبعاده . وقد كفت اللغة منذ زمن بعيد عن أن تكون وسيلة فقط لتصبح جزءا عضويا من الاثر الادبي . والمذهب البنيوي يجهد نفسه لاثبات ذلك . غير ان المحذور الذي يقع فيه بعض شعرائنا وكتابنا يكمن في كونهم يريدون تحميل الكلمة أكثر من طاقة التعبير ، أي انهم يريدون اطلاقها لتكون مستقلة في ذاتها ، ولذاتها ، وهو ما يوقعها في كثير من الاحيان في شباك العجز عن الايصال ، وهكذا نجد أنفسنا أحيانا أمام بعض الالاعيب البهلوانية والتهريج اللفظي بحجة التجديد . ونحن نعتقد ان التجديد في اللفظ والمعنى متزامن اذا كان وراءه ابداع وموهبة ، ولن تستطيع الكلمة بطاقاتها اللغوية وحدها أن تخلق جديدا .

● ما الذي تقوله في واقع الثقافة العربية الراهنة . وعليه كيف تحدد مفهوم الثقافة الوطنية ودورها الفاعل خصوصا في هذه الظروف المأزومة التي نمر بها الآن ؟

ـ لا أحسب ان الثقافة العربية مرت في السنوات الثلاثين الاخيرة بالازمة المخيفة التي تمر بها الآن . وأعتقد صادقا ان السبب الاول لهذه الازمة يكمن في مأساة الحرية . ان « النظام » السياسي يبلغ في هذه الفترة حده الاعلى من الشراسة في وجه الكلمة التي هي عدوته الاولى ، ولذلك فيجب تأنيسها وتطويعها وقص أظافرها ، وتحطيم أجنحتها حتى لا يكون بوسعها بعد أن تماشيه ، أي النظام ، وأن تسايره ، وأن تسير في ركابه . ومن أسف ان بعض الانظمة استطاع أن يبلغ هذه الغاية . فاذا ببعض الاصوات التي كنا نعرفها نقية جريئة تصاب بالبحة ، وبالتخاذل وبايثار السلامة. ولعل أكبر مظاهر هذه المأساة يأتينا من مصر ، مصر التي يبلغ فيها اضطهاد الابداع والكلمة الحرة ما لم يبلغه قط في عهد مضى . ويكفي أن نتذكر المحاكمات التي تجري الآن بحجة تشويه سمعة مصر ومعارضة المبادرة والقوانين المشروعة لكبت الحريات وهجرة كثير من الاقلام الحرة وتهافت عدد من الادباء أمام الارهاب وانحسار النشاطات الابداعية وتسلط أدباء ومفكري النظام السائد وقفز أدباء الصفوف التاسعة والعاشرة ليحتلوا الصفوف الاولى والثانية التي هجرها أصحابها . يكفي أن نذكر هذا كله لنقدر عمق المأساة التي تعانيها الثقافة العربية في مصر . ونحن من الذين يؤمنون بأن مصر ذات وزن ثقيل في الميدان الثقافي يؤثر تأثيرا عميقا على سائر أجزاء الوطن العربي ، ولكننا لا نريد بذلك أن نبرىء الانظمة الاخرى . فالحرية مضطهدة ومقموعة ، وان تفاوتت الدرجات ، في كل مكان . وحين نطلب من الثقافة أن تبدع ومن الاديب أن يبدع فلا بد أولا من أن نوفر لهما شرط الابداع الاساسي : الحرية .

اننا نلاحظ في السنوات الخمس الاخيرة مزيدا من ارهاب الرقابة على الفكر في العالم العربي ، ولو كانت وسائل الاعلام تدعي غير ذلك . فالكتب والمجلات تمنع الآن وتصادر أكثر من السابق ، والادباء ، يضيق عليهم في حياتهم ورزقهم أكثر من السابق . ويبقى ان شرفهم الحقيقي هو أن يواصلوا النضال ضد جميع أساليب الاضطهاد والارهاب . وهذا قدرهم وعنوان كرامتهم الاول .

وعلينا نحن هنا في لبنان أن نعي هذا أكثر مما يعيه الآخرون ، لاننا كنا وينبغي أن نعود الرئة السليمة التي يتنفس بها الوطن العربي .